الخاتمة

كانت "الأسطورة" – ومازالت – إحدى مكونات الوعى البشرى، ورغم التقدم العلمى الذى أحرزه الإنسان طيلة العقود الماضية، فلازال يلجأ إلى "الأسطورة" التى كثيراً ما يجد فيها سلوى لعجزه عن فهم الكثير من قضاياه ؛ كما أنه يلجأ إليها ليستمد منها توازنه. و"الأسطورة" تشبع بعض الحاجات البشرية العامة، وتعد – على هذا الأساس – عنصراً ضرورياً لا غنى عنه بالنسبة للثقافات الإنسانية فى كل مراحل تطورها .

وكل "أسطورة" – كما يقول "ماركس" و "أنجلز" – لها وظيفة حيوية، حيث تجاوز قوى الطبيعة وتحولها – عبر الخيال – إلى نسق من الرموز يضفى من المعنى ما يرتبط بالماضى والحاضر والمستقبل. ومن هنا، "فالأسطورة" ليست وهماً أو كذباً – أو بتعبير أدق ليست شيئاً لا لزوم له – إنها تجربة وجودية ؛ بل هى التجربة الوجودية الأولى التى عرفها الإنسان.

ومن وظائف "الأسطورة" أيضاً المحافظة على الوضع القائم، أو الإيهام بحقيقته أو واقعيته ؛ وكذلك حل الصراعات والمشكلات وإيجاد نسق خاص لتفسير الكون والحياة. لذلك تعد بنية ثقافية من مجموع البنى المكونة لثقافات العالم عبر تطوره الحضارى.

وفى إطار ما تقدم، حاولنا – فى هذا البحث – إلقاء الضوء على المضامين الأساسية التى تنطوى عليها "الأسطورة" و "الأيديولوجيا" من حيث ارتباطها بالوعى الإنسانى. فمنذ بدء الخليقة والإنسان يبحث عن معنى لوجوده ويحاول تفسير أسرار الكون، والعلاقات السببية والوظيفية التى تربط بين

obeikandl.com

محتويات هذا الكون. وتأتى فى المقدمة حياة الإنسان ذاته، بدايتها ونهايتها وأسرار ما بين البداية والنهاية. لذلك أبدع الأساطير وخلقها لكى يستوعب الحقيقة المطلقة من كل زواياها.

وحاول الإنسان أن يتطلع إلى الوجود الروحى الذى هو أعظم منه، والذى ينظم علاقته بالكون بصفة عامة؛ والذى تتطلع إليه الديانات المختلفة. واندفع ـ بقوة الإحساس المتأصل فى أعماقه ـ إلى خبرة المقدس التى لا يمكن التعبير عنها بلغة الواقع المعاش، ومفردات التجارب اليومية؛ فخلق "ميثولوجيا" تجعل الخبرة بالمقدس (الخبرة الدينية) مشتركة مع الآخرين.

وجاهد ـ أيضاً ـ فى سبيل الكشف عن أعماق النفس، وما تنطوى عليه من أخيلة وأفكار، فوجد أن "الأسطورة" تكشف عن العمليات الانفعالية اللاشعورية التى تعتمل داخل النفس، وتقوم بتحولات سحرية وأفعال خارقة هى بمثابة رموز تعكس رغبات وأمانٍ مكبوتة، تنطلق من عقالها بعيداً عن رقابة العقل الواعى .

كما رأى الإنسان أن "الأسطورة" تعكس صورة الثقافة بوصفها شكلاً من أشكال الحياة فى المجتمع، حيث حاولت أن تقدم نفسها "كأيديولوجيا" ترتكز على تلك المواقف والعلاقات التى ترتبط بصراع الجماعات والطبقات عبر التاريخ، كما جاءت لتعبر عن الأفكار والقيم التى تحتوى على الاتجاهات والميول غير المتحققة والتى تمثل حاجات العصر ومطامحه وآماله، لذلك ارتبطت "باليوتوبيا" التى تتطلع أحياناً إلى المستقبل وتقلق النظام القائم، وأحياناً أخرى تتسم بالثبات والسكون وانعدام القدرة على تغيير منطق الواقع الفعلى .

وهكذا، استطاعت "الأسطورة" ـ خلال تاريخ البشرية ـ أن تغتنى بمضامين جديدة، لتغدو أكثر تعبيراً عن عصرها وأدق تصويراً للمجتمع الذى أوجدها. كما توصلت ـ بإسهام الشعراء والفنانين فى صياغتها ـ إلى أن تكتسى بلباس فنى جذاب، وأن تمتلئ بالمعانى الإنسانية النبيلة التى جعلت منها أثراً خالداً فى تراث الإنسانية .

* * * * *